

قصيدة الزناطم^(١) على طريقة أبي الطيب المتنبي

أحمد حسين

دَعِ التَّوَجُّعَ لَا عَاشُوا وَلَا سَلِمُوا
أَلْقَاتِلُونَ هُمُو وَالْمَيْتُونَ هُمُو
مَا حَرَّكَ الزَّنْطُمْ الْهَجْرِيُّ^(٢) هَامَتَهُ
إِلَّا أَطَلَّتْ لَهَا مِنْ مَوْطِيٍّ قَدَمٌ
نَعِيمُهُ الذُّلُّ وَالْأَيَّامُ حُفْرَتُهُ
لَا الْحُزْنَ يُدْرِكُهُ فِيهَا وَلَا الْأَلَمُ
صَرَخَ الْمَهَانَةِ شَيْءٌ مِنْ عَجَائِبِهِمْ
كَأَنَّهُمْ قَشَّةٌ مِنْ فَوْقِهَا هَرَمٌ
لَوْ أَنَّ لِلظُّلْمِ عَقْلًا مَا أَحَاقَ بِهِمْ
فَلَيْسَ يُدْرِكُهُمْ ظُلْمٌ وَإِنْ ظَلَمُوا
أَوْ كَانَ لِلْأَرْضِ رُوحٌ مَا أُبِيحَ لَهُمْ
وَطَاءُ التُّرَابِ وَلَا أَنْ تُدْفَنَ الرَّمَمُ
تَغَافَلَتْ عَنْهُمْ الدُّنْيَا فَلَيْسَ لَهُمْ
فِيهَا تُدَبَّرُ لَا لَاءٌ وَلَا نَعَمٌ

تُرَوِّي الْحَوَادِثُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ عَرَضُوا
عَلَى الْوُجُودِ وَهُمْ مِنْ ذَاتِهِمْ عَدَمٌ
مِنْ ضَرْطَةِ الْقِرْدِ جَاءُوا لَا قِوَامَ لَهُمْ
بَوْحٌ وَفَوْحٌ لَهُ بَدْءٌ وَمُخْتَمٌ
لَهُمْ مَنَاهِجٌ فِي التَّدْلِيسِ نَادِرَةٌ
قَوَامُهَا الدِّينُ وَالْأَخْلَاقُ وَالْحِكْمُ
فَلَا يَمْلُونَ مِنْ تَدْيِينِ خِسْتِهِمْ
أَلَدِّينُ ذَلُّهُمْ وَالذُّلُّ دِينُهُمْ
لَوْ خَيْرَ الدِّينِ فِيهِمْ قَالَ كُفْرُهُمْ
أَوْ خَيْرَ الْعِلْمِ فِيهِمْ قَالَ جَهْلُهُمْ
لِلَّهِ حِكْمَتُهُ فِيمَا أَرَادَ بِهِمْ
مِنْ ضَرِّ أَنْفُسِهِمْ فِي نَفْعِ غَيْرِهِمْ
لَوْ كَانَ لِلْوَحْيِ رَأْيٌ فِي تَنْزِيلِهِ
تَنْزَلَ الْوَحْيُ فِي الْفُرَّانِ قَبْلَهُمْ
أَلَدِّينُ وَالْعَقْلُ عِنْدَ النَّاسِ فِي قَرْنٍ
وَالدِّينُ كَفَّارَةٌ لِلْعَقْلِ عِنْدَهُمْ
تَعْصَبَ الدِّينُ لِلْأَعْرَاقِ فَانْبَعَثَتْ
أَلصِّينُ وَالْهِنْدُ وَالْإِفْرَنْجُ وَالْعَجَمُ
إِلَّا الْعُرُوبَةُ مَاتَتْ وَهِيَ كَافِرَةٌ
وَبِالشَّمَاتَةِ شَمِلُ الدِّينِ مُلْتَمٌ

بِيضُ الْعَمَائِمِ (٣) سُودٌ فِي تَكَافُلِهَا
 وَالسُّودُ بِيضٌ وَحَبْلُ الْغَرْبِ مُعْتَصِمٌ
 وَالزَّنْطَمُ الْأَكْبَرُ الْمَشْقُوقُ حَافِرُهُ
 لَوْ أَطْلَقَهَا لَهَبَتْ نَحْوَهُ الصَّرْمُ
 يُفْتِي بَدِينِ نَبِيِّ إِسْمَهُ «بَوْلٌ»
 تَقَاسَمَتْ وَجْهَهُ الْأَعْرَاقُ وَاللُّحْمُ
 لَوْ أَرْكَبُوهُ عَلَى بَعْلِ وَقِيلَ لَهُ
 أَنَّ يَشْتَمِ اللَّهُ مَا اسْتَعَصَتْ لَهُ نَعَمٌ
 مِنْ بَعْدِ صَدَّامَ لَا السُّنِّيُّ مُعْتَصِبٌ
 حُكْمَ الْبِلَادِ وَلَا الشَّيْعِيُّ مُنْتَقِمٌ
 صَدَّامٌ بَدَّدَ شَمْلَ الْعُرْبِ وَأَنْهَدَمَتْ
 بِهِ دَعَائِمُ مَا كَانَتْ لِتَنْهَدُمُ
 تَبَارَكَ الرَّبُّ كَمْ كَانُوا يَدًا بِيَدٍ
 مِنْ قَبْلِهِ وَلَكُمْ طَالَتْ فُرُونُهُمْ
 هَلْ مَسَّهُمْ قَبْلَهُ ظُلْمٌ وَهَلْ نُهَبَتْ
 لَهُمْ حُقُوقٌ وَهَلْ شُدَّتْ لَهُمْ لُجْمٌ
 صَدَّامٌ أَقْدَسُ نَعْلًا مِنْ عَمَائِمِكُمْ
 وَقْدَسُ نَعْلَيْهِ فِي أَعْرَاضِكُمْ حَرَمٌ
 سَيْفٌ بِلَا غَمْدِهِ أَجْدَى لِحَامِلِهِ
 أَمْ غَمْدُكُمْ بِسُيُوفِ الْغَيْرِ يُقْتَحَمُ

هَلْ كَانَ صَدَامٌ ذُبُّبًا حِينَ يَخْرُسُكُمْ
مِنَ الذُّنَابِ وَيَدْرِي أَنَّكُمْ غَنَمٌ
يَا عَلِيَّةُ الذُّلُّ ذُودُوا الْآنَ عَنْ دَمِكُمْ
أَحْقَادَ فَارِسَ لَمْ يَبْرَأْ لَهَا سَقَمٌ
وَنَاشِدُوا الْكُرْدَ بِالْمَبْكِيِّ فَقَدْ سَبَقَتْ
لِأَلِ يَعْقُوبَ فِي أَعْنَاقِهِمْ نِعَمٌ
فَإِنَّ أَبَوَا فَاسَأَلُوا «أَبْرَامَ» ذِمَّتَهُ
أَلَمْ تَكُنْ أُمَّكُمْ فِي نَزْوِهِ رَحِمٌ
يَا جَيْشَ «رُسْتَمَ» أَقْبِلْ إِنَّ بِي نَهْمًا
إِلَى الشَّمَاتَةِ لَا يَرْقَى لَهُ نَهْمٌ
أُرِيدُ قَبْلَ رَحِيلِي أَنْ أَرَى دَمَهُمْ
وَالْعَرِضُ مُنْتَهَكٌ وَالْمَالُ مُقْتَسَمٌ
أَقْدِمُ فَمَا الْقَوْمُ إِلَّا ظَنِيَّةٌ سَنَحَتْ
فِي سَاحَةِ لَا ذُرَى فِيهَا وَلَا قِمَمٌ
يَا جَيْشَ «رُسْتَمَ» أَكْنَافٌ مُوَطَّأَةٌ
وَمَوْطِنٌ نَاسُهُ إِنَّ جَنَّتَهُ خَدَمٌ
سُودُ الْعَمَائِمِ (٤) أَدْنَى فِي قَرَابَتِهِمْ
إِلَى قِبَازٍ وَكِسْرَى إِنَّهُمْ عَجَمٌ
لَا يَعْرِفُونَ سِوَى الْإِخْلَاصِ مَنْقِصَةً
أَمَانَةُ الْغَدْرِ فِي أَعْنَاقِهِمْ قَسَمٌ

مَثْنَى الْأَذَى كَبَغِي السَّبْتِ مَا حَفِظْتُ
عَرِضًا وَلَا حُرْمَةً لِلْسَّبْتِ تَحْتَرَمُ
طَهْرَانُ قِبَلْتَهُمْ دِينًا فَلَوْ أَمَرُوا
أَنْ يَعْبُدُوا النَّارَ مَا اسْتَعَصَوْا وَلَا كَتَمُوا
وَالْأَشْعَرِيُّونَ (٥) أَتْبَاعُ الثَّرِيدِ لَهُمْ
فِي وَصْفِهِ مُعْجَمٌ يَزْهَوُ بِهِ الْكَلِمُ
بِيضُ الْعَمَائِمِ أَفْوَاهٌ عَلَى صَنَمٍ
مِنْ الطَّعَامِ وَأَضْرَاسٌ لَهَا لَقْمُ
زَنَاظِمٌ مُنْذُ جَاءَ الدِّينُ مَا فَرَعُوا
مِنْ عِلْمٍ مَا جَهِلُوا أَوْ جَهِلِ مَا عَلِمُوا
هَذَا يُحْنِبِلُ (٦) فِي عِلْمِ الْوُضُوءِ وَذَا
يَعْلَمُ النَّاسَ مَا لَا تَجْهَلُ الْبُهْمُ
فَزَنْطَمٌ مِثْلُ بَطْنِ الْعِجْلِ دَيْدَنُهُ
عِلْمُ التَّغَوُّطِ سَلْحٌ دَائِمٌ وَفَمُ
وَعَالِمٌ فِي شُؤُونِ الْهَيْكِ مُنْخَرِطٌ
يَكَادُ مِنْ شَبَقِ الْبَابِ يَلْتَحِمُ
أَلَا تَكْفُونَ عَنْ أَسْتَاهِكُمْ أَبَدًا
«يَا أُمَّةً بَصَقَتْ فِي وَجْهِهَا الْأُمَّةُ»
هَامَاتُكُمْ لَيْسَ فِيهَا مَا يُقَالُ فَهَلْ
مِنْ قَبْوِ أَدْبَارِكُمْ تُسْتَنْبِطُ الْحِكْمُ

وَسَادَةٌ مِثْلُ آذَانِ الْحَمِيرِ لَهُمْ
 نَبَاهَةٌ الْقِرْدِ مَهْمَا لُقْنَا بِصَمَوَا
 تَرَى أَسَافِلَهُمْ تَعْلُو إِذَا دَخَلُوا
 كَهْفَ الْجَزِيرَةِ مَسْحُ رَأْسِهِ قَدَمُ
 لَهُمْ عُرُوضٌ مِنَ التَّسْوِيفِ شَاهِدَةٌ
 أَنَّ الْبَغِيَّ لَهَا مِمَّا ابْتَعَتْ حَكْمُ
 يَمْشُونَ مَشْيَ السَّبَايَا نَحْوَ مَضْجَعِهَا
 إِذَا بَدَأَ السَّوْطُ (*) فِي أَوْهَامِهِمْ جَثَمُوا
 يَسُوقُهُمْ زَنْطُمْ لِلصَّيْدِ مُحْتَرِفٌ
 قَدْ يُشْبِهُ الْكَلْبَ لَوْلَا الْكَلْبُ مُحْتَرَمٌ
 يَرْمِي الْكَلَامَ لَهُمْ رَمَى الْعِظَامِ فَمَا
 يُزَنْطُمُونَ (٧) بِشَيْءٍ غَيْرَ مَا التَّهَمُوا
 كُفُّوا عَنِ اللَّغَطِ يَا نَسْلَ الْهَرَاءِ فَمَا
 يَبْغُونَ فِيكُمْ سِوَى تَأْكِيدِ مَا زَعَمُوا
 لَوْ كَانَ نِصْفُ بَصِيرٍ فِيكُمْ لَرَأَى
 أَلَدْرَبُ دَرَبَهُمُ وَالنَّعْلُ نَعْلُهُمُ
 مَاذَا يُحَاوِلُ قَوَادٍ يُلْقِنَهُ
 خَلْفَ الْكَوَالِيسِ دَيْوُثٌ لَهُ قَدَمُ
 غَيْرَ ابْتِدَالِ سَخَافَاتٍ لَكُمْ شُهِرَتْ
 مِنْ قَبْلِ أَنْ يُعْرِفَ التَّفَازُ وَالْقَلَمُ

هذي العروضُ رُقَى لِلْمَسْخِ مُحْكَمَةٌ
كَيْلًا يُقَالُ: أَنَسٌ مِثْلُنَا وَدَمٌ
أَلْعَجْلُ يُعْرَضُ قَبْلَ الذَّبْحِ تَزْكِيَةً
وَتُعْرَضُونَ لِكَيْ تُسْتَبْرَأَ الذِّمُّ
هذي الزَّنَاطِمُ مِنْكُمْ غَيْرَ أَنَّ لَهُمْ
جَاهَ الْخَصِيِّ وَأَنْتُمْ تَحْتُهُ خَدَمٌ
مُعَاكِسٌ وَمَدَارِيٌّ وَزَنْعَمَةٌ (٨)
بِلا حُدُودٍ وَذَاكَ الزَّنْطَمُ الْهَرَمُ
وَالْفَارُّ ذِي اللَّحِيَةِ السَّوْدَاءِ وَابْنُ إِذَا
مَاذَا وَكَيْفَ وَهَلْ وَالرَّقِصَةُ الْعَلَمُ
جُنْدٌ لِمَنْ شَاءَ لَا يُشْرَى لَهُمْ شَرَفٌ
وَلَا عُقُولٌ فَلَا شَاءَ وَلَا نِعَمٌ
لَكِنَّهُمْ يَحْسِبُونَ الْكَيْدَ مَوْهَبَةً
وَالدَّسَّ فَنَّا فَمَوْهوبٌ وَمُقْتَحِمٌ
حَلَّتْ بِهِمْ شَهْوَةٌ الْمَبْغَى وَسَاوَرَهُمْ
هَذَا فَمَ فِيهِ مَا يُغْنِي وَذَاكَ فَمٌ
وَالْعَهْرُ فَلَسَفَةٌ لَا يُسْتَهَانُ بِهَا
فَالعَصْرُ زَانِيَةٌ وَالسُّوقُ تُغْتَنَّمُ
لَمْ يَبْقَ فِي جَسَدِ الْهَجْرِيِّ جَارِحَةٌ
إِلَّا إِلَى سِعْرِهَا فِي السُّوقِ تَحْتِكُمْ

أَبَا عَدِيٍّ أَيُّفِي الشُّعْرُ مَنْزِلَةٌ
لِكِي تَشَدُّ إِلَى عَلِيَّائِكَ الْهَمُّ
لَا بَأْسَ بِالسَّيْفِ مَثَلُومًا وَمُنْكَسِرًا
فَالسَّيْفُ لَيْسَ حَدِيدًا إِنَّهُ شِيمُ
أَنْتَ الْأَعَزُّ وَإِنْ سَامُوكَ خَسَّتَهُمْ
فَالصَّرْحُ يُهْدَمُ أَحْيَانًا وَيُقْتَحَمُ
عَانَدَتْ وَحَدَكَ أَقْدَارًا لَهُمْ سَبَقَتْ
أَلَّا يَرِفَّ لَهُمْ فِي سَاحَةِ عِلْمٍ
أَبَا عَدِيٍّ عَبَّرْتَ السَّاحَ مُتَّصِرًا
فَرْدًا فَلَوْ قَادَهُمْ «جَبْرِيلُ» لَأَنْهَزَمُوا
وَقَفَتْ وَحَدَكَ تَرُوي النَّفْسُ لَوْعَتَهَا
وَلَيْسَ فِي وَسْعِهَا خَوْفٌ وَلَا نَدَمٌ
تُصَانُ بِالذُّلِّ أَمْوَالٌ وَأَمْتَعَةٌ
وَلَا يُصَانُ بِهِ عَرِضٌ وَلَا شَمَمٌ
أَلْقَوْمٌ فِي جَنَّةٍ مِنْ ذُلِّهِمْ أَبَدًا
يَسْتَبْشِرُونَ إِذَا مَا سَادَهُمْ قَزَمٌ
فَهَلْ عَجِبْتَ وَقَدْ مَاتُوا طَوَاعِيَةً
أَنْ يُسْلِمُوكَ وَأَنْتَ الْحَيُّ بَيْنَهُمُ
رَكِبْتَ صَعْبًا مِنْ التَّارِيخِ ضَيْعَهُ
مِنْ قَبْلِكَ الْكَيْدُ وَالتَّسْلِيمُ وَالْقَدَمُ

إِنَّ الْعُرُوبَةَ بَدَأَ لَا يُسَابِقُهُ
 بَدَأَ وَعَلَّمَ كُلَّ النَّاسِ مَا عَلِمُوا
 شُمُوسُ بَابِلَ فِي الْآفَاقِ سَاهِرَةٌ
 وَالْكَوْنُ تَنْجَابُ عَنِ أَنْحَائِهِ الظُّلْمُ
 وَأَرْضُ كَنْعَانَ وَجْهَهُ لَا يُغَادِرُهُ
 حُلْمُ الدَّعِيِّ وَلَا يَحْطَى بِهِ حُلْمُ
 قَلَائِدِ الْحَرْفِ أَجْرَاسُ مُعَلَّقَةٌ
 مِثْلَ النَّوَارِسِ يَطْفُو حَوْلَهَا النَّعْمُ
 لَوْ قِيلَ مَنْ مَنْحَ الْأَيَّامِ رَوْنَقَهَا
 وَأَوْدَعَ الْحَجَرَ الْأَسْرَارَ قِيلَ هُمُ
 لَكِنَّهُمْ غَادَرُوا فِي حُلْمِ جَنَّتِهِمْ
 وَأَوْرَثُوا جَنَّةَ الدُّنْيَا لِغَيْرِهِمْ
 مَا كَانَ حُلْمُكَ وَهَمًّا كَانَ أُمْنِيَّةً
 أَنْ يُسْتَعَادَ مِنَ الْأَمْجَادِ مَا هَدَمُوا
 كَيْفَ السَّبِيلُ؟ قَدْ اغْتَالُوا عُرُوبَتَهُمْ
 بِالدِّينِ فَلَيْهِنَا الْحَمَقَى بِمَا غَنِمُوا
 سَارُوا عَلَى الذُّلِّ وَاقْتِيدَتْ مَصَائِرُهُمْ
 كَالْإِبِلِ فَاسْتَوْجَبُوا بِالْعَدْلِ ذَبْحَهُمْ
 أَبَا عَدِيٍّ تَنَاهَى الدَّرْبُ وَأَنْهَزَمَتْ
 زَنَاطِمُ مَا تَزَالُ الدَّهْرُ تَنْهَزِمُ

مَضَيْتَ وَحَدَكَ إِلَّا فِتْيَةً نَهَضُوا
مِنَ الرَّمَادِ لِيُوفُوا الْعَزْمَ مَا عَزَمُوا
لَمْ يَبْقَ إِلَّا دِمَاءٌ يَلْطَمُونَ بِهَا
وَجْهَ الْعَدُوِّ دَمٌ يَمْشِي إِلَيْهِ دَمٌ
تَقَدَّمُوا الْمَوْتَ نَحْوَ الْمَوْتِ وَأَنْدَفَعُوا
لَا يَعْبَأُونَ بِمَحْذُورٍ وَلَوْ سَلِمُوا
مَنْ قَالَ إِنَّ الْمَنِيَا حَتْمُهَا زَمَنْ
أَوْ قَالَ إِنَّ الْمَنِيَا مَا لَهَا قَدَمٌ
ذَابَ الْحَدِيدُ وَذَابُوا طَوَّعَ أَنْفُسِهِمْ
لَمْ يَبْقَ بُدٌّ تَسَاوَى الذُّلُّ وَالْعَدَمُ
دَاسُوا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ غَيْرِ عِزَّتِهِمْ
عَاشُوا وَمَاتَتْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ أُمَّمٌ
أَبَا عَدِيٍّ وَأَنْتَ الْآنَ فِي قَرْنٍ
مَعَ الْفَجِيعَةِ هَلْ يُوْدِي بِكَ الْأَلَمُ
لَا بَأْسَ فِي فَارِسٍ أَوْدَى عَلَى شَرَفٍ
وَحَوْلَ نَعْلَيْهِ مَوْجُ الذُّلِّ يَلْتَطِمُ
مَاذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ قَايَضُوا جَمَلًا
بِظْلَفِ شَاةٍ وَأَسْيَادًا بَعْبَدِهِمُو
لِرَحْمِ هَاجِرٍ عَادُوا بَعْدَ أَنْ وُلِدُوا
مِنْ أُمَّهُمْ وَاسْتَبَاحُوا غَدَرَ أُمَّهُمُو

جاءوا إلى الليل يستهدون دربهم
 إلى النهار بما صموا به وعموا
 إن العروبة أم أنجبت وفضت
 وأنت آخر من برؤا بها وسموا
 يا سيد الروح إن الروح منزلة
 من اليقين بها المخدول يعتصم
 لم يبق منهم سوى أصداء مهزلة
 غدا تموت فماذا ينفع الندم
 أبصت عليهم فما كانوا سوى عبث
 وما عبثت فإن الحر ملتزم
 عبرت جلك في الأيام مقتحما
 ما العمر إلا مدى ما أنت مقتحم
 إن المصير فرادى كنت واحدنا
 وكنت أمتنا فردا وليس همو
 ونحن مثلك أسرى فوقنا أمة
 سوداء في نومها بالقار تحتلم
 تسبنا كل يوم وهي أملة
 سوداء أطول من أضعافها القلم
 لم يبق في الأرض من لا يشتهي دمنا
 نحن القديد وهذا عالم وحم

تَلِكُ الْمُسُوخُ الَّتِي تَدْرِي تُبَادِلُنَا
عَارًا بَعَارٍ فَلَا نَاسٌ وَلَا بِهِمْ
مُتْنَا بِهِمْ مِثْلَ مَا مَاتُوا بِنَا عَجَبًا
نَحْنُ الْحَضِيضُ وَهُمْ فِي قَاعِهِ قِمَمٌ
أُمُكْتُ قَلِيلًا لَقَدْ أَبْكَوكَ مِنْ كَمَدٍ
لَعَلَّكَ الْآنَ مِمَّا سَوْفَ... تَبْتَسِمُ
أَبَا عَدِيٍّ خَتَمْتُ الشَّعْرَ مُعْتَذِرًا
بَعْدَ الَّذِي كَانَ مَاذَا يَنْفَعُ الْكَلِمُ

شروح:

١. الزَّنَاطِمُ: جمع زَنْطَمٍ، وهي كلمة مُرْتَجَلَةٌ غير قاموسية تعني ملخصًا لكلِّ الدَّاءات المحتملة حين تجتمع في الكائن الهجريّ.
 ٢. الهجريّ: المسلم من أصل عربيّ.
 ٣. بيض العمائم: الهجريّون من السنّة.
 ٤. سودّ العمائم: الهجريّون من الشيعة.
 ٥. الأشعريّون: الأشاعرة، وهم أتباع الزنظم السنّي أبو الحسن الأشعريّ.
 ٦. يُحَنَّبِلُ: يُفْتِي أو يفسّر على طريقة الزنظم أحمد بن حنبل.
 ٧. يُزَنِّطُمُونُ: الزَّنَاطِمُ حين يتكلّمون.
 ٨. الزَّنَعَمُ: أنثى الزنظم.
- (*) بعض الكلمات التي على وزن (فَعْلٌ) يمكن التصرّف بها حسب رغبة القارئ وتغيير اللفظ مع الحفاظ على الوزن.

(مصمص، شباط ٢٠٠٤)